المدرسة الخاتونية
البرانية بدمشق (١)

يقول الاستاذ اسعد بالدين ص ٢١١

المسجد رقم ٨٢ : مسجد الخاتونية البرانية

تقدم ذكره ص (١٣٠) ونضيف هنا أنها (اي المدرسة الخاتونية البرانية) كانت باقية الى زمن ابن كنان فانه قال في المروج السندسية بتاريخ الصالحية ص ٢٧ : جامع الخاتونية فيه درس حديث في الاشهر الثلاثة وآخر من درس فيه القاضي حسن بن المدوي الصالحي. وقال العدوي : اول من هدمها ونقل رخامها الى مدرسته سيباي (أنظر مقال موفير بالمجلة الاسيوية سنة ١٨٩٤ ص ٢٥٤ ـ ٣٠٢)

وموقع هذا المسجد على الخريطة الملحقة بآخر الكتاب بالمربع ر ـ ٣) انتهى

***

هذا ماذكره الأستاذ بالدين عن مسجد الخاتونية البرانية ، وقد رأينا في أول عبارته أنه يشير الى ص ١٣٠ فلنرجع الى هذه الصحيفة لنرى ما ورد بها عن هذا المسجد

اننا نجد ابن عبد الهادي يقول :

فصل ثم قال (اي المؤرخ ابن شداد الذي ينقل عنه ابن عبدالهادي)

المساجد التي لم تذكر يعني فيما قدمه وهي كثيرة :

المسجد الخامس مسجد تربة خاتون بالجبل . ه

وعلق على ذلك الاستاذ أسعد بحاشية رقم ٣ بنفس الصحيفة بقوله :

وفي ابن كثير حـ ١٣ ص ١٦١ خاتون بنت عز الدين مسعود بن زنكي واقفة المدرسة الاتابكية بالصالحية كانت زوجة الملك الاشرف وقفت مدرستها وتربتها بالجبل وهي غير

(١) هذا المقال هو في تحقيق « مساجد دمشق » وتعريفها الى القارىء وتصحيح الاخطاء التي وقعت في كتاب « نخبة المقاصد في ذكر المساجد الخامس مساجد دمشق الذي الفه يوسف بن عبد الهادي ونشره الاستاذ اسعد طلس

الخانقاه الخاتونية بباب النصر المعروف بباب السعادة كما قال النعيمي في باب خواتون في ذيل الشرف القبلي على (نهر) بانياس شرقي جامع تنكز ولصيقه وهي منسوبة الى خاتون بنت معين الدين زوجة نور الدين محمود ـ انتهى

***

يستنتج مما سبق بيانه ما يلي :

أولاً : ان مسجد الخاتونية البرانية ورقمه المسلسل بالذيل ٨٢ ص ٢١١ موجود بالخريطة الملحقة بالكتاب بالمربع رقم ز — ٣ (راء) .

ثانياً : ان هذا المسجد رقم ٨٢ بالذيل وبالخريطة هو نفسه الذي عناه ابن شداد بقوله بصحيفة ١٣٠ : « الخامس : مسجد تربة خاتون بالجبل » .

ثالثاً : انه هو نفسه مسجد المدرسة الاتابكية التي بنتها خاتون بنت عز الدين مسعود ابن زنكي كما ورد بحاشية رقم ٣ ص ١٣٠ تعليقاً على قول ابن شداد المذكور في « ثانياً » .

رابعاً : انه هو نفسه المدرسة الخاتونية البرانية التي يقول العلموي ان الأمير سيباي هدمها ونقل رخامها الى مدرسته .

خامساً : انه هو نفسه « جامع الخاتونية » الذي يقول ابن كنان في كتابه « المروج السندسية » ان فيه درسا في الأشهر الثلاثة وان آخر من درس فيه القاضي حسن بن العدوي الصالحي » .

سادساً : ان الخاتونية البرانية هدمت في عهد سيباي كما يقول العلموي ومع ذلك كانت موجودة في عهد ابن كنان .

مناقشتنا لاقوال الاستاذ أسعد وظهار ما فيها من أخطاء

الخطأ الأول : خلق مواقع خيالية خاطئة للآثار :

ونحب قبل أن نمضي في مناقشة الأستاذ أن نصحح رقم المربع الذي يقع فيه المسجد رقم ٨٢ على الخريطة فان صحته ز — ٣ بالزاي لا بالراء لأن الخريطة تبدأ خطوط مربعاتها الرأسية من حرف الألف وتنتهي بحرف الزاي على الترتيب الأبجدي المعروف أبجد هوز حطي فلا وجود لحرف الراء فيها .

فاذا رجعنا الى هذه الخريطة وجدنا المسجد رقم ٨٢ يقع بين المسجدين رقمي ٢٣٠ و ٢٦٧ وهذان المسجدان هما كما وردا في الذيل :

الأول — مسجد رقم ٢٣٠ : ص ٢٤٣ هو مسجد الفرفي (بالراء) بحارة بين المدارس

بالصالحية . (وقد كتبه الأستاذ بالواو تارة وبالراء أخرى وصحته بالراء كما ذكرناه وإنا في ذلك بحث مستقل تال) .

الثاني — مسجد رقم ٢٦٧ : ص ٢٥١ هو مسجد المرشدية بجادة بين المدارس بالصالحية.

ولأجل تعريف القراء وخاصة الدمشقة منهم بمواقع هذه الآثار نقول : انا اذا أخذنا ترام الصالحية حتى محطة العفيف ثم سرنا في زقاق العفيف شمالاً فاننا نجد طريقاً يتجه من الغرب الى الشرق هو شارع الكلة فاذا وصلنا إلى أول طريق الماوردي عند المنزل رقم ٧٦ وانحرفنا الى اليمين في جادة بين المدارس فاننا نجد الى يسارنا بالصف الشمالي للشارع قبة بالمنزل رقم ٣ تسمى محلياً بقبة النبي يونس ، يتلوها الى الشرق زقاق ضيق غير نافذ هو زقاق رجب أغا . فاذا واصلنا السير شرقاً حتى بيت أبي صادق الماوردي رقم ٢٧ بالصف الشمالي نفسه وجدنا مقابله بالصف الجنوبي قبة الشيخ علي القرني وعلى عتب شباكها كتابة خمسة أسطر بالنسخ الأيوبي ذي الطرف الصغير وبها اسم الشيخ علي القرني وتاريخ وفاته.

وهذه القبة وما يتبعها هي المسجد رقم ٢٣٠ الذي يشير اليه الأستاذ .

أما المسجد رقم ٢٦٧ وهو مسجد المدرسة المرشدية فيقع شرقي قبة القرني مباشرة. وقد سقطت القبة ولكن لا تزال توجد الى شرقها المأذنة الحجرية المربعة الخاصة بهذا المسجد . وعلى عتب باب هذه المدرسة نقش تاريخي أربعة أسطر بالنسخ الأيوبي بحروف صغيرة به اسم بانيتها عصمة الدين خديجة خاتون ابنة السلطان المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب وتاريخ انشائها .

هذان هما المسجدان اللذان وضع الأستاذ أحمد بينهما مسجد الخاتونية البرانية فهل حقيقةً يوجد بينهم هذا المسجد الآن أو كان يوجد بينهم في أي وقت مضى ؟

يستطيع كل دمشقي أن يثبت بطلان ذلك بمجرد سيره بجادة بين المدارس ومشاهدته هذين الأثرين المتجاورين .

أما غير الدمشقة فنثبت لهم ذلك بالصورة الشمسية التي أخذناها لكتلة الأبنية الأثرية الممتدة من قبة القرني في الغرب حتى المدرسة الأتابكية في الشرق وتشمل (١) قبة القرني (٢) تتلوها المدرسة المرشدية بقبتها الساقطة ومأذنتها الحجرية المربعة (٣) مدرسة دار الحديث الأشرفية وقد سقطت قبتها ولا مأذنة لها (٤) يتلوها زقاق على ناصيته المدرسة الأتابكية ومأذنتها المربعة .

وواضح من الصورة الشمسية أن قبة القرني والمدرسة المرشدية متجاورتان بل ملتصقتان إحداهما بالأخرى وليس هناك مكان لأي أثر آخر يمكن قيامه بينهما .

وليس ثمة شك أو شبهة في التعريف بهذين الأثرين واسمي منشئيهما لوجود النقشين التاريخيين المشار اليهما . ووجود نقش تاريخي ثالث على عتب باب مدرسة الحديث الأشرفية. لذلك فنحن نقتبس هنا بعض ما رواه مؤرخو دمشق وخططها عن مواقع هذه الآثار لنرى هل أشار أحدهم الى وجود هذه المدرسة الخاتونية البرانية يوماً ما في الموضع الذي اختاره لها الاستاذ أسعد أو هو الذي انفرد بذلك ؟ .

أولا — يقول ابن عبد الهادي في كتاب المساجد الذي نشره الاستاذ أسعد بنفس الفصل الذي ورد فيه ذكر مسجد تربة الخاتون بالجبل ما يأتي ص ١٣١ : الثاني والعشرون : مسجد المرشدية . الثالث والعشرون : مسجد الشيخ علي القرنفلي .

ثانياً — يقول المؤلف نفسه في ص ١٥٦ من نفس الكتاب وهو يعدد مساجد المحلة الحادية والثلاثين من محلات الصالحية وهي حارة سوق شعيب (وتقول : هذا السوق يسمى الآن جادة بين المدارس ويمتد من الشركسية حتى شارع الكلة) ... الثاني مسجد بالمدرسة التابكية (وتقول : التابكية أو التابتية هي التسمية العامية المحلية وصحتها الاتابكية نسبة للخاتون الاتابكية) .

الثالث: مسجد بمدرسة دار الحديث (تقول: هي دار الحديث الأشرفية)

الرابع: مسجد في المدرسة التي فوقها (تقول: هي المدرسة المرشدية)

الخامس: مسجد في المدرسة القرنفلية (تقول: هي زاوية الشيخ علي القرنفلي)

فيلاحظ في أولاً : ان المؤلف ذكر المسجدين متجاورين ولو كان هناك ثالث بينهما لما أغفل الاشارة اليه .

وفي ثانياً : ان الثبت الوارد هنا يشمل بالضبط الآثار الأربعة الأيوبية المتجاورة من الشرق الى الغرب كما هي موجودة فعلا في النصف الجنوبي من هذه الجادة وليس بينها جميعاً محل لهذه الخاتونية البرانية التي أقحمها الأستاذ بين المرشدية والقرنفلية (انظر الصورة) .

ثالثاً — عن المدرسة المرشدية : يقول النعيمي : هي بالصالحية على نهر يزيد جوار دار الحديث الأشرفية (خطوط الدارس للنعيمي جـ ٢ ص ٥٧)

ويقول ابن قاضي شهبة : وتوفيت خديجة خاتون بيمارستان المارداني سنة ستين وستمائة ودفنت بقربتها التي أنشأتها جوار تربة الشيخ القرنفلي بالجبل . اهـ .

أي ان المدرسة المرشدية تجاورها دار الحديث الأشرفية (من الشرق) كما تجاورها تربة الشيخ القرنفلي (من الغرب)

رابعاً : عن الزاوية القرنفلية : يقول الشيخ عبد القادر بدران في كتابه منادمة الأطلال

الخطوط ج ٢ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ : هي بسفح قاسيون غربي الخاتونية (وتقول انه يقصد بها مدرسة خديجة خاتون المعروفة باسم المرشدية . الظن قوي ان ابن قاضي شهبة في « تاريخه »)

وينقل الشيخ بدران عن العدوي في « الزيارات » بعد أن يضبط اسم الفرنثي ما نصه : قال العدوي: زاويته أي الفرنثي جوار المدرسة المرشدية بصالحية دمشق من جهة الغرب » اه

وليس أصرح من هذا في اثبات ان المدرستين متجاورتان وان الفرنثية غربي المرشدية.

ويظهر أن الاستاذ أسعد قد خدعته كلمة الخاتونية الواردة في كلام الشيخ بدران فظن أنها الخاتونية البرانية دون أن ينتبه الى أن كل تربة أو مسجد أو مدرسة أو خانقاه أو مؤسسة بنتها خاتون أي سيدة تسمى خاتونية وبدمشق والصالحية الكثير من المعاهد التي بنتها الخواتين في العهدين الاتابكي والأيوبي وأوائل المملوكي من أمثال الخاتون الاتابكية والمارداينة والحافظية والقيمرية وزمرد خاتون وعصمة الدين خاتون زوجة نور الدين محمود ثم من بعده صلاح الدين وعصمة الدين خديجة خاتون وست الشام والصاحبة ربيعة خاتون أختا صلاح الدين والملك العادل بن أيوب والملكة هدية خاتون والخاتون المغنية وأم الملك الصالح وغيرهن .

وما يقصده بدران هنا هو مدرسة خديجة خاتون ابنة السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل بن أيوب المعروفة باسم المرشدية فالخاتونية والمرشدية هنا اسمان لمعهد واحد تقع المدرسة (أو التربة أو الزاوية) الفرنثية الى الغرب منه .

* * *

والخلاصة انه لا وجود لهذه المدرسة الخاتونية البرانية بين المسجدين رقمي ٢٣٠ و٢٦٧ الواردين بخريطة الاستاذ وهما مسجدا المدرستين الفرنثية والمرشدية .

وأما الخاتونية البرانية التي يعنيها العدوي ومسجد الخاتونية الذي يشير اليه ابن كنان فيقع كل منهما في مكان آخر سيعده الاستاذ عند اتمام البحث .

الخطأ الثاني : في اثبات أن المدرسة الأتابكية ليست هي المدرسة الخاتونية البرانية :

اذا كان الاستاذ أسعد قد اطمأن الى خلق موضع للمدرسة الخاتونية البرانية بين قبة الفرنثي والمدرسة المرشدية بجادة بين المدارس فلا ندري كيف تكون هذه المدرسة هي المدرسة الأتابكية أيضاً ؟

يقول الاستاذ في الحاشية رقم ٣ صحيفة ١٣٠ تعليقاً على قول ابن عبد الهادي (نقلاً عن ابن شداد) . « الخامس : تربة خاتون بالجبل » ما نصه :

« هي الخاتون بنت نور الدين محمود بن قطب الدين مودود بن أتابك زنكي واقفة

شارع المدارس : دمشق
من اليمين : قبة الفرنى والمدرسة الرشدية ومأذنتها
والمدرسة الاشرفية والمدرسة الاتابكية ومأذنتها

دمشق : تربة عصمة الدين خاتون

المدرسة الأتابكية بالصالحية التي كانت زوجة الملك الأشرف موسى بن الملك العادل ابي بكر ابن أيوب ووقفت مدرستها وتربتها بالجبل».

وقد رأينا الأستاذ عند كلامه على المسجد رقم ٨٢ بالذيل وهو مسجد المدرسة الخاتونية البرانية» التي كانت باقية الى زمن ابن كنان» يشير الى هذه الحاشية نفسها رقم ٣ بصحيفة ١٣٠ مما يدل على أنه يعتقد ان هذه المدرسة التي يشير اليها ابن كنان وان تربة خاتون بالجبل التي يذكرها ابن عبد الهادي هما هذه الأتابكية التي بنتها زوجة الملك الأشرف وجعلت تربتها بها

فاذا علمنا أن المدرسة الأتابكية (ويسميها العامة بدمشق التابكية أو التابتية) بجادة بين المدارس تتم شرقي دار الحديث الأشرفية ومكانها معروف مشهور ولها مأذنة مربعة ضخمة فلا ندري كيف يمكن في الوقت نفسه أن يضعها الأستاذ بين المدرسة المرشدية وزاوية الفرنثي ؟

والظاهر ان الأستاذ كان متسرّعاً في كتابته هذه الحاشية فاننا لا نجده يشير اليها عند كلامه في الذيل عن المدرسة الأتابكية بصحيفة ١٩١ بل يكتفي بالاشارة الى الهامش رقم ٣ ص ١٥٦ غير أن التوفيق قد خانه أيضاً في هذه المرة فقد وضع هذه المدرسة الأتابكية غربي المرشدية ودار الحديث الأشرفية وعزا ذلك الى النعيمي والحقيقة ان النعيمي يقول في باب المدرسة الأتابكية ج ١ ص ١٧١ وكذلك العلموي ص ١٦

المدرسة الأتابكية : غربيها المدرسة المرشدية ودار الحديث الأشرفية .

ويذكر الأستاذ تاريخ وفاة هذه السيدة الأتابكية في هذه الحاشية سنة ٧٤٠ والحقيقة انه سنة ٦٤٠ كما عاد وذكره بالذيل بصحيفة ١٩١ وكان من الممكن أن يشير اليه في باب التصويبات بآخر الكتاب ان كان من سبيل الخطأ المطبعي ، ولكن الذي نعتقده أنه اعتمد على الرواية الخاطئة في منادمة الأطلال ج ١ ص ١٠٤ ومختصره المخطوط لمدران فصل المدرسة الأتابكية أو على ما نقله النعيمي عن الصفدي الذي انفرد بذكر تاريخ وفاتها في ربيع الأول ٧٤٠ وان كان النعيمي قد حرص على تصحيحه فنقله مصححاً ٦٤٠ عن العبر للذهبي .

ولو انتبه الأستاذ قليلاً لهذا الأمر لادرك أنه ليس من المعقول أن يتوفى الملك الأشرف موسى سنة ٦٣٥ وتتأخر وفاة زوجته تركان خاتون الأتابكية عنه — وهي صاحبة هذه المدرسة — الى سنة ٧٤٠ أي بعد وفاته بنحو ١٠٥ سنوات .

ونتيجة ذلك ان المدرسة الأتابكية ليست هي الخاتونية البرانية التي يعنيها العلموي ويذكرها الأستاذ بالذيل تحت رقم ٨٢ وليست هي التي يقصدها ابن شداد وابن عبد الهادي بقوله « الخامس مسجد تربة الخاتون بالجبل » . ولا يمكن ان يكون موقعها بين

قبة القرني والمدرسة المرشدية لتجاور البنائين بن واتصاقهما .

الخطأ الثالث : نعود الى ما نقله الأستاذ أسعد عن العلموي خاصًّا بمسجد الخاتونية البرانية ذي الرقم ٨٣ بالذيل ص ٢١١ ونصه :

« قال العلموي أول من هدمها (أي المدرسة الخاتونية البرانية) ونقل رخامها الى مدرسته سيباي » اهـ .

ومعنى ذلك أن هذه المدرسة ذات الرقم ٨٢ التي اخترع الأستاذ وجودها بين زاوية القرني والمدرسة المرشدية بصالحية دمشق كانت موجودة في هذا الموضع الى أن هدمها الأمير سيباي كافل دمشق وآخر حكامها من قبل السلاطين المماليك قبل الفتح العثماني للشام ومصر .

وهذا خطأ فاحش كنا نربأ بالاستاذ أسعد طلس أن يقع فيه لأن هذه الخاتونية البرانية التي عناها العلموي والتي نقل رخامها سيباي أمير دمشق وبانيها لم تكن تقع بين هذين الأثرين المتلاصقين .

كما أنها ليست هي المدرسة الأتابكية كما ظنّ الأستاذ خطأ . ولا علاقة لها « بمسجد تربة الخاتون بالجبل » الوارد ذكره بص ١٣٠ وحاشية رقم ٣ بهذه الصحيفة كما خيل للاستاذ.

بل لا علاقة لها بالصالحية أصلاً ولا توجد بها ويكفي ذكر كلمة بالجبل في تحديد موقع « مسجد تربة الخاتون » لانتفاء أن يكون هذا المسجد الذي بالجبل هو نفسه مسجد الخاتونية البرانية الذي عناه العلموي بعبارته السابقة .

ونتقدم نحن الآن لايضاح حقيقة ما قصد اليه العلموي من أمر هذه المدرسة فنقول : ان هذه المدرسة الخاتونية البرانية هي المدرسة الحنفية التي أوقفتها زمرد خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دقاق المتوفاة سنة ٥٥٧ هـ بالمدينة المنورة والمدفونة بالبقيع الغرقد .

يقول أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي من علماء القرن التاسع في كتابه نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٧٦ — ٧٧ :

« المنيبع محلة وسويقة وحمام وأفران وبها مدرسة الخاتونية وهي من أعجب الدهر يمر بصحنها (نهر) بانياس ونهر القنوات على بابها ولها شبابيك تطل على المرجة وبها ألواح الرخام لم يسمح الزمان بنظيرها وعدة (من) خلاوي الطلبة . وبجوارها دار الأمير الأصيل (ابن منجك) رحمه الله تعالى . . . . وهذه المحلة من محاسن دمشق . اهـ .

ونقل الشيخ عبد القادر بدران في مطول المنادمة المخطوط بالجزء الاول ص ٢٢٦ ومختصره المخطوط أيضاً عن ابن المزلق في تحفة الأنام مثل ما رويناه . . . . وقال :

« والخاصل ان هذه المدرسة كانت بالشرف القبلي ثم اندرست وذهبت » اه

وقال ابن كثير ج ١٢ ص ٣١٨ .. « كان يعرف ذلك المكان بتل التعالب » اه

وقال الصفدي : « وهذه المدرسة بأعلا الشرف القبلي »

وقال المقوي في مختصر الدارس المخطوط ص ٥٦ :

هذه الخاتونية هي شمالي نهر بانياس مطلة على الميدان الأخضر وكانت قبلة بمأذنة وبئر الى آخر وقت الجراكسة وأوائل الدولة العثمانية وأول من خربها وأخذ رخامها ومن جملته رخام المحاريب سيباي ووضع ذلك بمدرسته الكائنة بباب الجابية الملقبة بجمع الجوامع .. اه

وفي مخطوط الدارس للنعيمي فصل مطول عن هذه المدرسة بالجزء الاول ص ٣٣٣ وما بعدها ... ومنه يتضح ان تاريخ وقف هذه المدرسة هو سنة ٥٢٦ هـ وان زمرد خاتون أوقفتها على الشيخ ابي الحسن علي البلخي وهو اول من ذكر الدرس بها ... الخ

***

هذه هي المدرسة الخاتونية البرانية التي عناها المقوي وهي كما قال صراحةً تقع « شمالي نهر بانياس » وتطل على الميدان الاخضر فأين الميدان الأخضر من سكة بين المدارس بالصالحية ؟ وأين الشرف القبلي جنوبي بردي من جبل قاسيون بأقصى شمالي المدينة ؟

وأين زمرد خاتون المتوفاة سنة ٥٥٧ هـ والتي أوقفت مدرستها سنة ٥٢٦ هـ من تركان خاتون الاتابكية المتوفاة سنة ٦٤٠ هـ ؟

ان على الأستاذ أسعد أن يتفضل بإجابتنا مشكوراً عن هذه الاسئلة جميعاً .

وقد سميت هذه المدرسة بالخاتونية نسبةً للخاتون أي السيدة التي بنتها وسميت البرانية لوقوعها على الشرف القبلي جنوبي نهر بردي خارج أسوار المدينة ويمتد هذا الشرف كما شاهدناه من شارع النصر المسمى سابقاً شارع جمال باشا حتى مزرعة المزه غرباً. وقد كان من زهد دمشق لارتفاعه واشرافه على نهر بردي الذي يجري بينه وبين الشرف الشمالي . وقد كان يزخر بالمساجد والمدارس وكانت جميع المدارس الموجودة به يطلق عليها لفظ البرانية أي الواقعة خارج الأسوار كالمدرسة الظاهرية البرانية التي بناها الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي والخانقاه النجيبية البرانية التي انشأها جمال الدين أقوش النجيبي والمدرسة الأسدية البرانية التي انشأها أسعد الدين شيركوه وغيرها .

الجابية — القاهرة

السيد محمد رجب